

## (٤) مرض الزهايمر : Alzheimer

فى الواقع العلمى ، يمكن أن يوصف أى مرض بعبارات ومصطلحات عن السبب والأثر . والأعراض التى يقدمها المريض لطبيبة ، مع ما يسفر عنه فحص الجسم ، تعتبر جميعها النتائج المباشرة المحددة للتغيرات المرضية داخل الخلايا ، والأنسجة ، والأعضاء ، أو للاضطرابات فى العمليات الكيميائية الحيوية . وبمجرد أن تتعين بوضوح ودقة هذه البدائل الأساسية ، يصبح من اليسير التوجيه نحو إبداء الملاحظات العلاجية المرتقبة . وإن الغرض من المتابعة المتدرجة التشخيصية هو العثور على السبب ، واستخدام تأثيراته كمفاتيح لكشف الأسرار .

مثلاً : التصلب الذى يسد الشريان المغذى لجزء من عضلة القلب سوف يسبب ذبحة<sup>(١)</sup> ، أو موت جزء من عضلة القلب (لعدم وصول الدم النقى إليه)<sup>(٢)</sup> مع ظهور الدلائل الناجمة عن هاتين الحالتين . والورم الذى ينتج عنه إفراط كبير فى الأنسولين يقلل بشدة مستويات الجلوكوز فى الدم ، فيمنع تغذية أجزاء المخ الرئيسية ويؤدى إلى الغيبوبة . والفيروس الذى يهاجم الخلايا الحركية فى النخاع الشوكى يسبب شلل العضلة التى ترسل إليها تلك الخلايا رسائل . جزء من الأمعاء يلتوى بشدة حول نتوء نسيج داخلى عقب جراحة فتكون النتيجة انسداد بالأمعاء يتسبب عنه انتفاخ ، وقىء ، وجفاف ، وعدم توازن كيميائى فى الدم ، وهذا بدوره يؤدى إلى اضطراب فى نبض القلب . انفجار الرائدة الدودية يملأ التجويف البطنى بالصديد فتكون النتيجة التهاب الغشاء البريتونى (المبطن للتجويف البطنى) فيتسرب القيح إلى مجرى الدم وفيه بكتيريا ويتسبب عنه حمى حادة ، وتعفن الدم وصدمة . وقائمة الأمثلة لا تنتهى ، وهى المادة الأساسية لكتب الطب .

يأتى المريض إلى الطبيب ومعه علامة أو أكثر من الظواهر الدالة : ذبحة ، غيبوبة ، شلل بالرجلين ، قىء متواصل ، أو بطن منتفخ ، أو حمى مصحوبة بألم فى البطن ، وهنا يبدأ العمل الاستكشافى . إن سلسلة الأحداث هى التى قادت إلى ملاحظة بعض الظواهر مع نتائج الفحص الطبى ، وكلها تؤدى بالطبيب إلى استخدام المصطلح الطبى : تقصى المرض الوظيفى Pathophysiology .

إن هذا المصطلح هو المفتاح إلى معرفة المرض . وبالنسبة للطبيب ، فإن الكلمة لها دلالاتها التى تجمع بين الفلسفة والجمال الفنى أو الشعرى ، ولا عجب فى

(١) Angina Pectoris : إحساس شديد بإختناق الصدر مع آلام بالغة القوة . والذبحة الصدرية

ليست مرضاً فى ذاتها لكنها مظهر مرض فى القلب .

(٢) Infarction - الجلطة .

ذلك ، فإن جزءاً منها من أصل يوناني "Physiologia" له معنى فلسفى وشعرى : أى سؤال أو بحث فى طبيعة الأشياء "Pathos" فهى بادئة بمعنى : التألم أو المرض . ومنهما معاً ينتج تعبير أدبى لجوهر بحث وتفحص الطبيب وهو الكشف عن طبيعة الألم والمرض .

فتصبح مهمة الطبيب تحديد السبب المثير للمرض بتتبع الخيط الممتد إلى أن يعثر على «المتهم» الأساسى فى حالة تلبس : ميكروبية أو هرمونية ، كيميائية أو آلية تلقائية ، جينية أو بيئية ، حميدة أو خبيثة ، فطرية ذاتية أو حديثة مكتسبة . ويتم التحرر والاستقصاء باقتفاء أثر المعلومات الوثيقة والآثار التى تركها الجانى من تدمير واضح المعالم بالجسم . وهكذا يعاد فهم بنية الجريمة وتوضع خطة العلاج التى تجنب المريض آثار استفحال المرض .

## القبض على الممرض (المتهم) متلبساً

وبمعنى آخر ، فإن كل طبيب هو «متقص للمرض الوظيفى أو العضوى» . هو باحث محقق يبنى تحديد المرض باقتفاء أثر الأصل فى مظاهره وعلاماته . فإذا ما تم ذلك ، أمكن اختيار العلاج الملائم . وسواء كان الهدف استئصال المرض ، بتدمير بالمعاقير أو بأشعة X ، بإبطال مفعوله بالترياق المضاد ، بتقوية الأعضاء التى تعرضت للهجوم ، بقتل الجراثيم والميكروبات المسببة له ، أو ببساطة «إيقافه عن العمل» أى كبح نشاطه حتى تتمكن أجهزة الجسم ذاته الدفاعية من هزيمته وقهره ، فإن خطة أو برنامج العمل فى كل حالة يجب أن تكون منظمة جيداً ضد كل مرض إن أراد المريض أن يصمد للمعركة إذا ما لاحت أية فرصة للغلبة والفوز . وعندما يدخل طبيب فى معركة للنضال ضد هلاك مريضة ، فإن معارفه ومعلوماته تتحرى عن السبب والأثر لتكون هى المستودع الحربى الذى يوجهه نحو الاختيار الصحيح لأسلحته .

## الترياق المنشود لقهر الجانى

إن محصلة القرن الماضى فى مجال بحوث الطب الحيوى هى أن تقصى المرض الوظيفى للغالبية العظمى من الأمراض أصبح معروفاً جيداً ، أو على الأقل معروف جيداً بدرجة كافية لإتاحة العلاج المناسب الفعال . وكن يبقى هناك بعض الأمراض تبدو العلاقة فيها بين السبب والأثر أقل وضوحاً وتوصيفاً مما نرجو ونأمل ، والقليل من تلك الأمراض هو من بين الكوارث الكبرى فى عصرنا الحالى . والمرض الذى يطلق عليه اليوم : «نمط الزهيمر» خبَل أو عته الشيخوخة<sup>(1)</sup> ، لا يندرج فقط تحت قائمة هذه الفئة من الأمراض والكوارث ، لكنه يحمل فوق ذلك إغاضة شديدة حيث أن أول أسبابه ظل يراوغ العلماء منذ أن لفتت مشكلته أنظار الأطباء لأول مرة عام ١٩٠٧ .

(1) "Snile dementia of the Alzheimer type"

أساس التشخيص لمرض «الزهايمر» هو أنه : تحلل وفقدان عدد كبير جداً من الخلايا العصبية فى تلك الأجزاء من قشرة المخ المتعلقة بما يسمى الوظائف العليا مثل الذاكرة ، والتعلم ، وإصدار الأحكام والتقديرات ، ويتناسب مقدار الخلل أو الخلل الذى ينتاب المريض فى طبيعته وقسوته مع موقع الخلايا المصابة من المخ وعددها ، والنقص الواضح فى عدد الخلايا العصبية هو فى حد ذاته تفسير كاف لفقدان الذاكرة وأنواع العجز الأخرى بالمخ . لكن هناك عامل آخر يد أنه يلعب دوراً مشابهاً : انخفاض ملحوظ فى مادة «الأستيل كولين» وهى من بين الموصلات العصبية التى توجد فى الجهاز الباراسمبثاوى .

تلك هى العناصر الأساسية المعروفة عن هذا المرض ، لكنها قليلة جداً وبعبدة كل البعد عن توفير صلة مباشرة بين المكتشفات الكيميائية والبيولوجية من ناحية ، وبين الظواهر أو الدلائل المحددة التى يتعرض لها المريض فى أية لحظة من ناحية أخرى . إن كثير من التفاصيل عن تقصى وظيفة هذا المرض لازالت تخدع وتراوغ معظم الجهود المبذولة المعنية به فى مجال علوم الطب فلا تنتهى إلى نتائج ثابتة أو محققة . ولا تعرف أقل القليل مما قد يعين على العلاج بقدر ما نجعل أكثر الكثير عن مسببات المرض .. لكن من الممكن إلقاء نظرة على تطور هذا المرض بالتدريج تاريخياً من المعلومات المتاحة لعلها تكشف بعض الغموض المصاحب لمظاهر الخلل فى وظائف المخ ، ومن الممكن أيضاً التأريخ للمأساة المروعة التى تحل بأسر الضحايا ، ومن الممكن كذلك الحديث عما يحدث للشخص المبتلى وكيف أنه يساق إلى الموت « كل شئ جاء إلى الرأس قبل عشرة أيام بالضبط من عيد زواجنا الخمسين » هكذا بدأت «جانيت ويتنج» تستعيد ذكرياتها عن ست سنوات من العذاب قضتها زوجها فى ذبول الإحتضار وهو فى المرحلة الأخيرة من مرض الزهايمر . كنت أعرف جانيت وزوجها «فيل» منذ أيام طفولتى . كانا صغيرين ولهما جاذبية شديدة منذ أن زارتهما أسرتى لأول مرة فى مسكنهما فى أواخر الثلاثينات . كان هو فى سن الثانية والعشرين ، وهى فى سن العشرين وبالمقارنة إلى أبائى المهاجرين الأكبر سناً ، بدت أسرة «ويتنج» وكأنهما زوجان من نجوم السينما ، شباباً ومرحاً واستمتعاً ببيت حديث المفروشات .

لم يساورنى الشك فى حقيقة المشاعر المتوهجة التى يحملها بوضوح كل منهما نحو الآخر . لكن ما كنت أشك فيه هو ترجيح أن اثنين يتقاسمان الحياة بهذا القدر الكبير من البهجة والمتعة يمكن أن يكونا حقاً زوجين . كنت على يقين من أنهما يحاولان تحقيق ذلك ، لأننى كنت أعرف من ملاحظتى الذاتية أن الأشخاص المتزوجين لا يكون سلوكهم فيما بينهم على هذا النحو المتألق . كان كل منهم مجنوناً بالآخر .

ظل في هذا الزواج شيء ما متبادل هو مزيج من الاحترام والشغف والرعاية والرقعة ، وهذا ما أدركت قيمته المتزايدة عندما كبرت ونضجت بدرجة تكفى لمعرفة كيف يكون ذلك بين رجل وامرأة . وحتى تعبيرات العاطفة الجياشة المكشوفة التلقائية لم تختف . ومع مرور الأعوام ، صنع «فيل» لنفسه مركزاً مرموقاً في تجارة العقارات ، وأصبحت الشقة التي تسكنها الأسرة في «وستبورت» بولاية كونكتكت مقراً جميلاً ، عامرة بثلاثة أبناء . فلما كبر الأولاد ، انتقلت چانيت مع فيل للإقامة في بيت فاخر بمدينة ستراتفورد . وعندما توقف فيل في سن الرابعة والستين عن العمل لكل الوقت كان كل واحد من أبنائه قد حقق نجاحاً مرموقاً في مجاله وبأسلوبه ، وأصبح المال وفيراً ، والمستقبل على ما يبدو آمناً .

بعد عشرات السنين من عدم رؤية أسرة وينتج بين سنوات عمرى العشرين والأربعين ، تلاقينا من جديد عام ١٩٧٨ عندما أصبح مقر إقامتهما الفاخر قريباً من بيتي غير بعيد من «نيوهافن» . إن قضاء أسمية مع هذين الزوجين العظيمين قلباً وعاطفة هو في حد ذاته متعة وإعجاب باتزان ترابطهما وبالاحترام الكامل الرقيق المهذب الذى يبدو واضحاً حتى فى أبسط تعامل بينهما . وفى النهاية ، عندما تقاعد فيل تماماً ، وانتقل هو وچانيت إلى «شاطئ دلراى» بولاية فلوريدا ، أحسست أنا وزوجتى إن صديقين عزيزين غالياً القيمة قد انتزعا منا وأصبحا نائبيين عنا . ما كنا نجهله هو أن أشياء طفيفة لكنها غريبة بدأت تحدث .

وحتى قبل الرحيل ، كان فيل - ذو العقل الحاد المتقد دائماً وفى كل لحظة - قد توقف عن قراءة الكتب - لم تلحظ چانيت ذلك إلا عندما استعادت بذكرتها الأحداث . وأيضاً فقط مع استعادة الأحداث ، تذكرت بعد سنوات أنها أدركت لماذا كان يصبر على أنها يجب أن ترتب برنامج عملها اليومي بحيث لا تتركه أبداً بمفرده وعندما كانت تعتزم قضاء بعض وقت المساء فى المدينة ، كان يصاب بالغم ويدمدم قائلاً «أنا لم أتقاعد عن العمل لكى أبقى وحيداً» . فى تلك الأيام الباكرة ، كانت حالات الغضب المتفجرة نادرة ، ثم أصبحت مألوفة متكررة ثم تحولت إلى نوبات قاذفة ناسفة فى تلك السنوات القلائل التى قضتها الأسرة فى ستراتفورد ، وتزايدت . بدا أن فيل كان يجد دائماً الأعذار لإنتقاد إبنته «نانسى» فكانت زياراتها إلى بيت أبيها تنتهى دائماً بالدموع قبل أن تلحق بالقطار الذى يحملها إلى شقتها فى مدينة نيويورك . وقبل انتقال الأسرة - فيل وزوجته - إلى فلوريدا ، حدثت سلسلة من الوقائع الغامضة تدل على اضطراب متصاعد ، فكان رد فعل فيل إزاءها هو الاستنكار الراض مع الغضب الحائق وكأنما يوجد شخص آخر غيره مسئول دائماً عن الخطأ . مثلاً : أكثر من مرة كان يذهب إلى المحل الخطأ (غير المقصود أو المعتاد) لقص شعره ، ثم يعنف الحلاق البرئ لأنه تعمد إهمال الموعد الذى حدده - فيل - من

قبل مع شخص آخر . وفى إحدى المرات ، هدد بلطم سائق سيارة داخل محطة بنزين ل مجرد أن هذا السائق جاء يبحث عن خرطوم بنزين سقط بالقرب منه . الغريب أن هذا يحدث من قبل الذى لم يرفع يده مطلقاً من قبل مهما كان غضبه .

وأخيراً ، ظهرت أول إشارة كبرى تدل على أن هذه العيوب والاختفاقات ليست فقط مجرد حالات خلل شخصية تزداد سوءاً وتصدر عن عجز ذى مكانه ومسئولية لا يجد الراحة ولا التكامل فى فترة تقاعده . إن الأمر أخطر من ذلك . ذات مساء ، دعت چانيت إلى العشاء زوجين لم ترهما - هى وقيل - منذ عدة سنوات : «روث» و«هنرى وارنر» كان قيل - عادة - مضيفاً ودوداً لطيفاً أنيساً ، فخورا بإعداد زوجته للمائدة ، وبخبرته ومعرفته الواسعة بأنواع الشراب . وقد تعلم منذ أن كان شاباً بديناً بعض الشيء أن ينتقى ثيابه الأنيقة جيداً بحيث يتناسق بطنه الممتلئ مع وجهة المستدير المبتسم فيبدو فى هيئة صاحب النعمة البهيج المرح ، وكان هذا ينعكس على دخيله نفسه فيبدو مهذباً أنيقاً جميلاً موفور السعادة والبهاء . كان رجلاً بسيطاً سمحاً إلفاً مألوفاً ، يعرف حيشما وجد كيف يوسع المجال المحيط به ويغمر أجواءه بالمشاعر المريحة الطيبة النابعة من طيبة القلب . وفى بيته أو فى أى مكان آخر - فالأمر سواء - كان قيل يشبه صاحب الفندق الكبير القلب الذى يجعل همه الأول سعادة وهناء كل قادم إليه أو محيط به .

هكذا كان الحال فى عشاء تلك الليلة . كان طعام چانيت لذيذاً ، والشراب الذى اختاره (قيل) جيداً منعشاً يدل على حسن انتقاء ، وحول المائدة ، دار الحديث شجياً شيقاً ، فى جو عائلى ممتع ، على ذات النمط الذى يطبع بيت (وينتنج) ويغمره بالهناء وقال آل «وارنر» إن أمسياتهم الطيبة فى دفء هذا الشعور النبيل الفياض ترجع بالذكريات الحلوة - مع آل وينتنج - إلى سنوات بعيدة ماضية .

فى الصباح التالى - لم يتذكر قيل شيئاً عن تلك الليلة لم يكثرث لأى شيء خاصة لرؤية الزوجين وارنر ، وعبثاً - رغم الاسهاب فى الشرح له وبالتفصيل - لم يقتنع بأنهما كانا فى زيارته بالأمس . قالت چانيت : «وهذا ما أفرغنى » ، وهى التى كان ذهنها حتى تلك اللحظة يبحث عن تبريرات منطقية للتغيرات الواضحة التى طرأت مؤخراً على سلوك زوجها قيل . ورغم ذلك ، وحتى مع غداه منعطف الالعودة ، حاولت أن تفسر لنفسها أقرب الأحداث المتعلقة التى وقعت أخيراً ولاحظتها عن قرب : «كنت أقول لنفسى : حسناً ، أنا أيضاً أنسى بعض الأشياء ، وربما يتحدث هو عنها فيما بعد» . ثم تملكها اليأس وهى تنظر بعيداً من خلال الأفكار الملتهبة المرعبة وهى تتصاعد وتتفاقم كلما أدركت أنها فى الغالب تقنع نفسها بعدم جدوى الفترة الأخيرة من حياة زوجها .

بعد مرور أسابيع قلائل ، اكتنف البناء الدفاعي الهش عند جانيت دليل قاطع برز واضحاً تماماً فى مسار خط رؤيتها ، وظل مستعصياً على الزوال أو حتى الانزواء رغم ما تبذله من جهود مضنية فى التبرئة والدفاع . فعند عودتها عشاء إلى البيت بعد قضاء بضع ساعات بالخارج ، وجدت نفسها فى مواجهة فيل نائراً غاضباً متهما إياها بالذهاب لزيارة عشيقها . والذى فاق قسوة الاتهام فى حد ذاته ، هو شخصية «العاشق» المشهور : «الثر» ابن عم فيل ، الذى مات منذ عدة سنوات . تقول جانيت : «حتى ذلك الوقت ، لم أكن أعرف ماذا يكون مرض الزهيمر . عرفت فقط أنني خائفة مذعورة إن شيئاً مروعاً يحدث لفيل ، لا أستطيع تجاهله ، أو أجد له حتى الآن تفسيراً .

«ومع ذلك ، فإن اتخاذ خطوة إيجابية ربما كانت فى نهاية المطاف تؤكد مالا يمكن دفعة . ظلت جانيت مترددة فى البحث عن فحص طبي . ربما كانت تحتفظ بالأمل فى أن فيل ببساطة يمر بفترة انفعال عاطفى عابرة ، أو أن هذه النوبات من السلوك غير اللائق أو المذهب لن تتطور إلى الأسوأ ، بل وربما تلاشى ويرأ منها مع مرور الزمن . ومع ذلك ، لم تكن الأحداث وجيزة أو عابرة ، وإنما غير محفوظة فى الذاكرة . كان يبدو أن فيل غير واع بما قاله أو فعله . إن العودة بالذاكرة - وحتى الآن - لا تعين جانيت على استرجاع الأكاذيب الصغيرة العديدة التى كانت من المحتم أن تخدع بها نفسها لكى تهدئ من القلق المتزايد الذى كان يصحبها على الدوام ، ولكن تؤخر سماع الإعلان الرسمى بأنه : لا أمل .

وفى النهاية ، أصبح مستحيلاً الاستمرار فى أن تبعد أفكارها عن التسليم بحقيقة أن مخ فيل يتفكك . وكثيراً ما تزايد قيامة من النوم فى منتصف الليل ، صارخاً فى جانيت أن تغادر فراشها قائلاً : «ماذا تفعلين هنا ؟ » منذ متى والأخت تنام مع أخيها فى فراش واحد ؟ . وفى كل مرة ، كانت تفعل فى مراره وصبر ما يأمرها به ، فتتركة غارقاً فى غضبه وتستلقى بعيداً على أريكة فى غرفة المعيشة ساهرة حتى الصباح . بينما يسرع هو بالنوم الهادئ ، فإذا استيقظ فى باكورة اليوم التالى لم يتذكر غضبه النائر .

ثم وقع ما كانت جانيت تخشاه ولا يستطيع تأجيله ... أكثر من ذلك . ذات يوم ، وبعد نحو عامين من الذى حدث مع أسرة وارنر ، استخدمت جانيت حجة لا تذكرها الآن لإقناع زوجها ... وهى فى الواقع تقنع بها نفسها للذهاب إلى طبيب الأسرة . بعد الإنصات بعناية إلى تاريخ الوقائع ثم الفحص الطبي ، خرج الطبيب من غرفة الكشف وهو يلفظ باسم مرض فيل . ومنذ تلك اللحظة أصبحت جانيت متألفة على نحو ما مع الصفات المميزة لمرض «الزهيمر» إلا أن توقعها المسبق للتشخيص لم

يخفف من وطأة الصدمة أو الإحساس بقرب النهاية المحتملة عندما سمعت كلمات الطبيب قررت هي والطبيب ألا يخبرا قیل . ولو أنهما أخبراه فإن ذلك لم يكن بغير شيئاً . فقد أصبح بالفعل بعيداً عن إدراك أى شيء سوى تفهم وقتى عابر لمضمون مثل هذا التشخيص ، ولن يحتفظ فى ذهنه بأية محاولة لوصفه . فى خلال دقائق معدودات ، لو أنه استمع إليهم ، فإنه بالتأكيد لن يعبر الأمر أى اهتمام وإن كان متعلقاً بحالته العقلية ، وكأنهم لم يخبروه بأى شيء .

بعد مرور بضعة شهور ، عذمت جانيت على أن تخبره وعندما تزايدت نوبات الأفعال غير المنطقية أو المعقولة وتقاربت الفترات الزمنية التى تتدهور فيها ذاكرته ، كانت جانيت أحياناً تفقد القدرة على الصبر والتحمل ، ودائماً كانت تشعر بدفعة لحظية من الخجل حين تعامل هذا الرجل الطيب بغضب نائر طائش ، أو حين تصدر منها كلمة حادة نابية . ذات مرة ، بعد جدال مشير قالت له : « ألا ترى ماذا أصابك ؟ ألا تدري أنك مصاب بمرض الزهيمر ؟ » قالت جانيت وهى تصف لى حالة الغضب المثير : « لقد شعرت بطيشى وشناعة ما قلت فى نفس اللحظة التى نطقت فيها اسم المرض » . لكن ندمها لم يكن ذا ضرورة . وهذا ملاحظته هى من الجو العام : إن قیل لم يعد مدركاً لحالته القاسية المروعة إذ إنه لم يتغير عما كان عليه قبل أن تنطق صارخة بالكلمة . فعلى قدر إدراكه ووعيه ، فإنه لم يحدث شيء يسئ إليه ، بل أنه لم يعد يتذكر حالات النسيان المتكررة التى تتابها هو . ويظل قیل ويتننح العجز الطيب لم يتغير شكلاً فى نظر كل من أتيحت له فرصة معرفته ولو كانت عابرة ، وهذا بالتحديد ما كان يظنه هو فى نفسه عن نفسه .

فعلت جانيت تقريباً كل ما يفعله كل إنسان فى حالتها المؤلمة . قررت أن تتولى بنفسها رعاية قیل إلى آخر ما تستطيع ، وبدأت تبحث عن كتب تساعد على فهم حالة المخ عند أولئك المصابين بمرض الزهيمر والبعض منها جيد ، وأفضلها جميعاً بجدارة كتاب بعنوان «يوم الـ ٣٦ ساعة» (The 36 - Hour Day) وفيه وجدت بينا مفصلاً يؤكد ما قاله لها الطبيب منذ أيام مضت مثل : «لئن كان هذا المرض مثالياً فى البطء ، إلا أنه يتطور بلا هوادة أو رحمة » ، وأيضاً : «إن مرض الزهيمر يفضى عادة إلى الموت فى خلال سبع إلى عشر سنوات ، لكنه قد يتطور بسرعة أكبر (بين ثلاث وأربع سنوات) أو ببطء أكبر (فى نحو خمس عشر سنة) » . ولما كلفت متعجة من أنها تشهد - فى ظنها - أمراً عادياً من هذيان وتدمير مرحلة الشيخوخة ، فقد أعتزضتها وهى تطالع الكتاب هذه الجملة المبهمة «إن الخلل العقلى ليس هو النتيجة الطبيعية للشيخوخة» .

وهكذا ، سرعان ما أدركت جانيت أنه مرض حقيقى ، وأنه لابد لها من

مواجهته ، ولو أنه يحمل معه حتماً بلا شفقة أو لين التصدع فالموت . من هذا الكتاب - مع الكتب الأخرى - تعلمت جانيت شيئاً عن التغيرات الجسمية والشعورية التي يمكن أن تتوقعها من قيل ، كما أنها تلقت من القراءة إشارات هامة عابرة توجهها ، ليس فقط إلى الاهتمام به ورعايته ، بل أيضاً إلى رعاية نفسها طوال السنوات القادمة ، وهي بالتأكيد ضاغطة معذبة . ولكن في النهاية عثرت على هذه الجملة : «إنها مجرد كلمات ، خالية في واقع الأمر من التأثير النافذ . إن ما في داخل قلبك هو وحده الذى يعينك على فعل ذلك » . وأيا كان مدى ومقدار مطالعتها ، وأيا كانت كيفية تهيئة وإعداد نفسها لاستقبال تلك التوقعات ، فإن كتاب يوم الـ ٣٦ ساعة صاغها واضحة مباشرة : «أحياناً قد يعنفك أو ينتقدك بقسوة أولئك المصابون بأمراض الاختلال العقلي ، وقد يضربونك ويسبون إلى من وما حولهم » ، إلا أنها لم تتوقع مطلقاً تلك السلسلة من الأحداث التي نزعت الأمور من يديها في أُمسية من شهر مارس عام ١٩٨٧ ، بعد عام من الاستغراق الكامل في الرعاية الخالصة . كانت تلك الليلة «قبل عشرة أيام بالتحديد من ذكرى عيد زواجنا الخمسين» عندما «طفح الكيل»<sup>(١)</sup> هذا ما وصفته لى بعد خمس سنوات من وقوعه .

«لم يعد يعرف من أكون . ظن أنى أفتحمت البيت وسرقت متعلقات جانيت . ثم بدأ يدفعنى حول المكان ويلقى نحوى بمختلف الأشياء . وقد هشم بعض تحفى الفنية الثمينة وهو لا يدري ماذا تكون . ثم قال أنه سوف يتصل بنانسى (الأبنة) ويخبرها بما يجرى فى البيت . وبالفعل طلبها تليفونياً ، فأدركت هى على الفور ما يحدث . فقالت له : «أعطني فوراً تلك المرأة لأكلمها» ، لذا دفع التليفون نحوى قائلاً «خذى ! ابنتى ستكلمك ، ستخبرك أن تنقشعى وتخرجى » ! وعندما أمسكت بسماعة التليفون إذا بنانسى تقول فزعة مستعطفة : «أمى ! اتركى البيت وأخرجى فوراً . سأطلب الشرطة» . وما أن وضعت السماعة ، وحتى جذب فيل التليفون بعنف وطلب أيضاً الإدارة المحلية للحى .

من السذاجة أو الحمافة ، أننى بقيت فى البيت ولم أخرج فأخذ يقذفنى بكل ما حوله لذا لم أجد مفرأ من استدعاء الشرطة أيضاً . وتصور : ثلاث سيارات للشرطة تظهر معاً وتقترب نحونا ، فأحسست بالارتباك ! ودخل رجال الشرطة ، فحاولت أن أخبرهم بما يجرى ، إلا أن فيل قاطعنى قائلاً : «إنها ليست زوجتى . تعالوا معى لأريكم صورة لزوجتى» . ثم جذب واحد من رجال الشرطة ومضى به إلى حجرة

(١) وكما يقول العرب أيضاً فى مثل آخر : «بلغ السيل الزبى» - والزبية هى الراية أو الأرض العالية التى لا يصل إليها الماء - المترجم .



النوم ليريه صورة زفافنا فكان طبيعياً أن يبادرة رجل الشرطة بقوله مشيراً إلى الصورة :  
« هذه العروس تشبه زوجتك الواقفة هناك » ثم أشار نحوى ! لكن فيل أصر على  
القول صارخاً : « إنها ليست زوجتي » !

فى غضون ذلك ، أقبلت جارتنا على صوت الجلبة ، فعرفها فيل . فلما رأت ما  
يحدث ، خاطبته بكل وداعة ورقة قائلة : « فيل ، أنت تعرف أنني أحبك وأنتى لم  
أكذب عليك أبداً . تلك المرأة هى جانيت ، التفت نحوها وانظر ! » . ففعل تماماً ما  
أمر به . أدار وجهة نحوى ونظر إلى وكأنه يرانى لأول مرة . ثم قال : « جانيت ..  
أحمد الله أنك هنا ! جاء إلى هنا شخص يريد أن يسرق ملابسك » ! .. هذا بالضبط  
ما حدث » .

راوض أحد رجال الشرطة فيل حتى اصططحبه إلى سيارته فقال فيل : « سوف  
يظن الناس أنك ألقيت القبض على «وحاول التملص من يد الشرطى الذى رد عليه  
فى هدوء : « لا أبداً ! إنهم سيظنون أننا نرافق صديقاً فى نزهة بالسيارة » . فبدا أن  
فيل شعر بالارتياح لهذا التفسير الساذج . إنه فى الحقيقة كان فى طريقه إلى  
مستشفى قريب يمكث فيه إلى حين تدبير ممرضة مقيمة بالبيت .

انتقلت نانسى للإقامة مع أمها ، فكانا يزوران المستشفى كل يوم . فى البداية ،  
أدهشتها ارتياح فيل الشديد للعمل الروتينى الذى يجرى فى جناحه بالمستشفى ،  
لكن سرعان ما ظهر أنه فى الحقيقة لا يدرى أين هو . تقول جانيت : « لم يتورع أن  
يقدمنا إلى مكتب الاستقبال المشرف على الجناح ويخبرنا أن هؤلاء سكرتيراته وإن  
المستشفى فندق يتولى هو إدارته » . كان عادة يعرف جانيت ، أما الابنة الشابة ،  
فكان لابد فى كل مرة من اخباره أنها ابنته . وفى بعض الأحيان ، كان يظن أن  
جانيت عشيقته ، ثم أنتهى إلى أنه لم يعد أبداً يعرف من تكون .

فى خلال أسبوع ، تم العثور على ممرضة جيدة مقيمة بالبيت . فانتقل فيل إلى  
رعايتها . وبعد أيام قلائل ، إحتفلت جانيت بعيد زواجهما الخمسين إلى جوار  
رجل يدرى حيناً سبب وجودها معه وأحياناً لا يدرى . أما عن حقيقة حالة عقله  
المختل ، وعن حجم المأساة التى حلت بفترة بالأسرة ، فهو لا يدرى مطلقاً ، إنه نسيان  
تام .

طوال عامين ونصف بعد ذلك قضيت جانيت كل يوم تقريباً مع فيل ، فيما  
عدا فترات قصيرة كانت ترجئها من أجل إرضاء أبنائها . فقط كانوا يدركون تصاعد  
إرهاقها وتعبها المضنى ، ويعلمون متى يجب أن تتوقف محتتها . حتى لحظات غيظها  
واستياؤها لم تغب عن انتباههم . لقد كانوا يفهمون كلا الأمرين معاً ، جيداً ،  
فيلتمسون لهذا العذر عن طيب خاطر أكثر مما تعذر هى نفسها : فمعهما قدمت من

عمل أو خدمة أو مواساة بإخلاص وولاء ومودة ، فإن حبيبها وأصدق أصدقائها ينحدر نحو هاوية سحيقة القرار .

أصبحت جانيت متطوعة للخدمة في قسم العلاج الجسدى . وفي بعض الفترات القصيرة تشارك في أنشطة المساعدة والخدمات التي تؤديها مجموعة من المتطوعين إلى أسر مرضى الزهيمر لكن مجموعات المساعدة تستطيع أن تتحمل فقط جزءاً يسيراً من الأثقال التي تتراكم على كاهل شخص واحد . في خلال فترة وجيزة عرفت جانيت أن كل ضحية من ضحايا الخلل العقلى يتلى أولئك الذين يجبونه بما يتفرد به من شكل العذاب والمعاناة والآلم ، ولذا فإن كل حالة تتطلب شكلاً فريداً من المؤازرة والعون يلائم تماماً ما يصاب به كل شخص بالتحديد . ثم تبين الأبناء استحالة أن يكونوا شهوداً على تدمير أبيهم المحبوب ولعله من الخير أن تمضى الأمور على هذا النحو . أرادوا التخفيف عن روح أمهم المعذبة ، وقد ارتأوا أن تظل متخمة بالدعم العاطفى لكي تتحمل أداء الواجبات التي يعلمون أنها ألزمت نفسها بها .

استجمع «جوى» - الإبن الأصغر - كل قواه كيفما كانت مناسبة لكي يزور والده مرتين اثنتين في فترة تدهوره البعيد المدى . وقد سببت له هاتين الزيارتين غما لا يطاق ، ولم يستفد منها الأب شيئاً على الإطلاق لأنه لم يعرفه ولم يفتن إلى وجوده . أما المساعدة التي تلقتها الأم - وكانت تلك هى المساعدة الحقيقية المطلوبة أكثر من غيرها - فهي تتمثل في صدق المؤازرة الخالصة التي جاءت ، ليس من مجموعات العون ولا من الكتب ، وإنما من التحمل والمساندة الآمنة من جانب الأسرة ومن تلك المجموعة القليلة من الأصدقاء الذين ينبع إخلاصهم ووقاؤهم من صفاء الحب .

لقد قيل : «إن ما فى قلبك هو ما يمكنك من فعل ذلك» . وإن ما كان فى قلب جانيت هو أن تفعل له «قيل» دون سواها ما لا تستطيع أن تفعله الممرضة ، ولا الطبيب ، ولا الأخصائية الاجتماعية . وسواء كان هو يعرفها أم لا ، وكثيراً كان لا يعرف ، فإن شيئاً ما فى داخله ربما لا علاج له كان مصراً على استبقاء الظلمة . وبعيداً عن التذكر أو الفهم ، فإنها - جانيت - كانت الطمأنينة والأمن ، الحقيقة واليقين ، البشارة والنذير فى وسط أو بيئة على العكس من ذلك عنده : لا إنضباط فيها ولا معنى لها . قالت «عندما كان يرانى قادمة ، ربما لوح بإشارة من يده ، لكنه لم يكن يعرف من أكون . كان يدرك فقط أنني شخص ما جاء لزيارته ، وللجلوس معه» .

فى البداية ، كانت صدمة مشاهدة قيل فى حالته الثابتة التلف مفرعة تتجدد كل يوم . وكان فى استطاعة جانيت أن تحافظ - بطريقة أو بأخرى - على اتزانها

وضبط مشاعرها عندما تكون كعادتها معه . ومع ذلك ، كان الزمام يفلت منها أحياناً : «فى العام الاول ونحن بالبيت ، كنت أشعر فى بعض الأوقات اننى على وشك الأنهيار والتحطم . فكان لابد أن يأخذونى إلى غرفة أخرى ويتكلمون معى ثم يتكلمون ويتكلمون ، إلى أن أحس أننى تحسنت بعض الشيء لمواصلة النضال . فإذا ما خلوت إلى نفسى فى الليل أتتأبنتى حالات هستيريا (تشنج وهوس) » . وبالتدريج أصبحت أكثر تعوداً ومرونة إزاء حالة قتل المتابعة السوء ، إلا أنها أدركت كم يكبر الأمر شاق مزعجاً عند أولئك الذين يتولون رعايته . كما أنها أيضاً أرادت صيانتها . أرادته أن يظل فى الذاكرة دائماً مثلما كان ، رجلاً متألقاً بالعزيمة عود نفسه ليس فقط على العزة والكرامة ، بل أيضاً على منهج دقيق فى الحياة تفرد به : «قررت ألا أسمح لأصدقائنا بزيارة البيت . فما كنت أَرْضى لهم أن يروونه على تلك الحال» .

فى البيت ، كان تغير سلوك قتل تماماً مثل ما ورد فى الكتب : «بطيئاً ، ولكنه يتطور بلا رحمة » . فى البدء ، احتفظ بقدر من طبيعته الاجتماعية الودودة الطيبة ، على اعتبار أنه فيما يبدو كان يعتقد أنه مضيفاً لشرذمة من الناس المعذبين فى الأرض فهو مسئول عن إسعادهم . فكان يرتدى ثيابه كاملة ، ويذهب متنقلاً من مريض إلى مريض سائلاً مستفسراً عن كل واحد منهم فى أريحية وحياء : «وكيف أنت اليوم ؟ أتمنى أن تشعر بتحسن» . وأحياناً ، إذا كانت جانيت أو الممرضات فى مشغلة لفترة وجيزة بعيداً عنه ، قد يدفع رجلاً قعيداً . أو امرأة - على كرسى متحرك (بمجلات) فيمضى به مباشرة إلى خارج المدخل الأمامى للمستشفى ذهاباً إلى جولة للنزهة . وعندئذ يلقى القبض عليه فى أحد الشوارع القريبة ، مبتهجاً بدرجة قعيدة المستسلم ، غير عابئ بصخب حركة المرور ولا بزحام المشاة .

خلال المراحل المتوسطة من مرضه ، ظهر على قتل عدم ملائمة واضحة بين الأفكار التى حاول فيما يبدو أن يعبر عنها ، وبين الكلمات الصادرة عنه بالفعل . وبالرغم من أن هذا الأمر قد يحدث أحياناً لضحايا النقطة (شلل الدماغ أو المخ) ، إلا أنهم عادة يكونون على وعى من عدم قدرتهم على إخراج الكلمات الملائمة الصحيحة . أما قتل فلم يكن لديه أدنى فكرة عن عجزه . لقد تذكرت جانيت مناسبة معينة ، عندما كانا يسيران معاً ، إذ توقف فجأة ثم صاح فيها : «إن القطارات تجرى ببطء ، إفعلى شيئاً » فلما أجابت بأنها لا تعرف أين هى القطارات ، زمجر فى غضب : «ماذا جرى لعينيك ، ألا تبصرين ؟ » ثم أشار إلى حذائه المنسدل الرباط ، فإدركت على الفور : «كان يريد بالضبط إحكام الرباط لكنه عبر عن ذلك بهذا الشكل . لقد كان يعرف ما يريد أن يقوله إلا أنه لم يستخرج الكلمات المضبوطة ، بل ولم يدرك ذلك » .

بعد عودته إلى البيت بفترة ، بدأ فيل يزداد وزناً لكنه عندما توقف عن تناول الطعام - في الواقع نسي كيف يمضغ - كان لزاماً على جانيت أن تضع أصابعها في فمها لاستخراج فتات الطعام مخافة أن يختنق بسببه . في هذا الوقت . لم يعد يتذكر اسمه . وبالرغم من استعادته القدرة على المضغ ، إلا أنه لم يعرف مطلقاً من يكون وقبيل توقفه الكامل عن الكلام ، كان بين الحين والحين ينظر برهة إلى جانيت ، لا تعدو لحظات قصيرة ، نظرة فيها الوداعة والركة القديمة ، مستخدماً بعض الكلمات التي تعود أن يدايعها بها مرات لا تعد ولا تحصى طوال نصف القرن من الحياة معاً . فربما تتم بكلمات مثل : «إنني أحبك - ما أجملك ! وإنني أحبك» . وبمجرد أن يتفوه بتلك الكلمات ، يرتد سريعاً إلى الجانب الآخر ، جانب النسيان التام .

### مرض الزهيمر مدل مهين :

وأخيراً ، فقد كل اتصال وكل انضباط . لقد أصبح فيل عاجزاً تماماً عن التحكم في نفسه ، غير مدرك لذلك كلية وبالرغم من أن وعية كان كاملاً ، إلا أنه ببساطة لم تكن لديه أية فكرة عما حدث . ولما كان البول يلل ثيابه وأحياناً يكون البراز ، فإن تنظيفه وتغيير ملابسه مراراً كل يوم كان حتماً واجباً لإزالة المكروهات التي دنست البقية الضئيلة من الإنسانية التي مازالت متروكة فيه . قالت جانيت : «وإنه ذلك الرجل الذي كان دائماً فخوراً بمظهره وأناقته ، ودائماً مكرماً مبهجاً .. بل وتستطيع أن تقول عنه إنه كان مفرطاً في الحشمة . ثم أن ترى فيل واقفاً عارياً بينما ينظفه المساعدون ، وهو لا يدري على الإطلاق ماذا يحدث ....» . وهنا تنم عينيه عن بداية أول رققة للدموع ، ثم قالت : «لا أحسب إلا أنه مرض مدل مهين ! . ولو أنه استطاع بطريقة ما أن يعرف ماذا جرى له ، فإنه يقيناً كان سيرفض البقاء في الحياة .. وإنه ليسرني إنه لن يعرف . فهذا أمر يفوق احتمال أي إنسان » . ومع ذلك ، فهي نفسها تحمته طواعية وعن رضى دون أن يسألها أحد أو يرتاب في أن ما فعلته كان تلقائياً ولم يطلب منها أدائه . نادراً ما كانت ترى أبناءها ، وكثيراً ما كانت تجلس مع زوجات وأزواج المرضى تشاطرهم أحزانهم : «كنا نجلس ونبكى معاً . فلما قويت بعض الشيء ، حاولت أن أساعدهم . إنك عندما تصل إلى نتيجة ، تطرح عنك بعض المخاوف . وهذا ما علمت نفسي أن تفعله » وتعلمت جانيت أيضاً أن مرض الزهيمر ولو أنه مرض المرحلة الأخيرة من الحياة المتأخرة إلا أنه قد يصيب أيضاً من هم أقل سناً . لقد كان بالمصحة رجلاً في سنوات الأربعين من العمر عيناه فقط تتحركان .

قرب النهاية ، بدأ فيل يفقد وزنه سريعاً . في أثناء السنة الأخيرة من عمره بدا وكأنه الجلد يتدلى من وجهه . واشترت له جانيت حذاء جديداً لأن قدمه انكمش

درجتين فى الطول وأصبح ذابلاً ضئيلاً - ومنظرة أكثر ، وأكثر تقدماً فى السن . هذا الرجل الذى كان يوماً قوى البنية ممتلئاً صحة وحيوية ، وكان فى شبابه يرتدى سترة تناسبه من المقاس الكبير ، ها هو ينحدر ليصير وزنه نحو ستين كيلو جرام .

فى خلال ذلك كله ، لم يتوقف مطلقاً عن المشى حتى فى تروده على المصححة فهو يمشى قلقاً ، ومتواصلاً بلا توقف كلما سمح له المشرفون على جناح العلاج بالمستشفى . وكما حاولت جانباً أن توسع خطواتها لتلحق سريعاً به ، لكنها لا تلبث أن يدركها الجهد والتعب إلى درجة الإنهيار ، بينما يظل هو متابعاً سيره . وحتى عندما كان مهزولاً شديد الضعف لا يكاد يقوى على الوقوف ، كان بطريقة ما يجد القدرة على المشى راثعاً غادياً ، أماماً وخلفاً ، وحول منطقة مكاتب الممرضات والمشرفين . وعندما يستهلك كل طاقته ويصبح منهكاً تماماً لا يقدر على مواصلة المشى ، يظل واقفاً مترنحاً (شديد التمايل والاهتزاز) إلى أن تأتى جانباً والممرضات فيجذبه من كتفيه ويهدئنه ثم يجلسه برفق فى الكرسي المتحرك ، وهو سريع التنفس شديد الضعف ، بادرى العجز عن الانتقال أبعد من ذلك .

ما أن جلس ، حتى مال جسمه الذابل الهزيل جانباً ، لأن قيل لم تعد لديه القدرة على إمساك نفسه منتصباً فكان لابد وأن تربطه الممرضات بالمقعد مخافة أن ينكفى نحو الأرض . وحتى وهو فى هذه الحالة ، لم تتوقف قدماءه عن الحركة . وبالرغم من أنه ظل جالساً هناك ، مشدوداً إلى الكرسي بحزام يلف حول وسطه ويلهث من الإعياء نتيجة ما يبذل من جهد لا ينقطع ، فإنه لم يتوقف عن تحريك قدميه فى تقليد - مثير للمشاعر - لخطوات المشى السريع . يبدو وكأنه مجبر على فعل ذلك اقتفاء لأثر شىء ضاع منه إلى الأبد . أو ربما لم يكن ذلك صحيحاً . وربما كان فى داخله شىء ما يدرك القضاء المحتوم الذى ينتظر أولئك العابرين بالمرحلة الأخيرة من مرض الزهيمر ، لذا فهو يجرى فراراً منه . وأين المفر ؟

وفى الشهر الأخير من حياته ، كان لابد من ربط قيل إلى سريرة بالبيت لمنعه من النزول منه ليلاً ومواصلة المشى الذى لا يتوقف . وفى مساء التاسع والعشرين من يناير ١٩٩٠ ، فى العام السادس من مرضه ، زفر زفرة شديدة ، وقد تقطعت أنفاسه من أثر إحدى مشيانه السريعة القوية ، وتعثرت فى كرسية المتحرك فسقط منبطحاً على الأرض بلا نبض . وعندما جاء رجال الأسعاف بعد دقائق معدودات ، استخدموا جهاز إنعاش القلب والرئتين ( Cardiopulmonary resuscitation (CPR) ولكن بلا جدوى ، فأسرعوا به إلى المستشفى وكان مجاوراً للبيت . وهناك ، سجل طبيب الطوارئ رأيه القاطع بأن قيل مات بسبب تليف بطين القلب الذى أدى إلى توقفه .

استدعى الطبيب جانيت إليه - وتشاء الأقدار أنها لم تكن إلى جوار زوجها قبل عشر دقائق من بدء مسيرته الأخيرة نحو الوفاة .

قالت : «وعندما مات ، سررت ، أعلم أن وقع هذه الكلمة قاس مفزع ، لكنني كنت حقاً سعيدة لأنه تحرر من إفسار هذا المرض المهيمن . كنت متأكدة من أنه لم يتألم مطلقاً ، كما كنت أعرف أنه كان يجهل تماماً ما يحدث له ، وهذا ما يسرني ، وما أعتبره نعمة مباركة ، وهو الشيء الوحيد الذي صان جهدي طوال مشواري معه على مدى تلك الشهور والأعوام . لكنه كان أمراً بشعاً مؤلماً مفزعاً أن أرى ذلك يحدث لإنسان أحببته كل الحب ... هل تعلم ؟ عندما ذهبت إلى المستشفى بعد وفاه فيل ، سألوني إذا ما كنت أرغب في رؤية جثمانه . قلت : لا وكانت معي صديقة حميمة شديدة التمسك بإيمانها الكاثوليكي ، لم تفهم سبب رفضي . لم أرد أن يظل هذا الوجه الميت عالقاً بذاكرتي . ولكنني أكون أكثر وضوحاً : إن رغبتى هذه لم تكن من أجلى أنا . كانت من أجله هو » .

وهكذا ينتهي تدمير «فيل ويتنج» . حتى في غمرة انحداره المأساوي المحزن نحو ضمور المخ ، أحجمت أسرته عن رؤية المشهد الختامي للتدمير المهلك الذي هو في حد ذاته كثير جداً ما يسلم جسد ضحيته الذي لا يدري شيئاً إلى نهايته المفجعة . وليس غريباً أو شائعاً أن ضحايا هذا المرض وهم في المرحلة المتأخرة يفقدون كل اتصال بمن حولهم ، وأيضاً يصبحون بلا حراك . فإن أجسامهم تتخذ أشكالاً وأوضاعاً بشعة وهي متصلة أو منحدره نحو الموت .

ولكن قبل لحظة النهاية بفترة طويلة ، تصبح مشكلات المراقبة ساعة بساعة لا تطاق بالنسبة لمعظم الأسر . ومع سلوك لا يمكن التنبؤ به مسبقاً ، يجب منع المريض من التجوال والتنقل من مكان لآخر ومن تدمير نفسه وما حوله ، أو على الأقل التعامل معه جيداً في تلك الظروف عندما لا يجدي التحذير ، وحين يشعر القائمون بالرعاية أنهم يراوغون وأن الضرر يتصاعد . كان من حسن الصواب أن يختار مؤلفو كتاب «يوم الـ ٣٦ ساعة» هذا العنوان . لأن استرخاء المراقب الحذر ولو للحظة قد يؤدي إلى إيذاء جسم المريض أو من حوله ، أو إلى إحداث نزاع من الجيران يفرض تصرفاً معيناً لم تستعد له الأسرة بوقت كاف . إن الطاقات تتلاشى ، والجهود تشتت ، والمريض يذبل ويتضاءل ، وحتى أشد الأزواج - أو الزوجات - صرامة وعزماً سرعان ما يجد نفسه - أو تجدد نفسها - مرهقاً خلاف ما يبدو عليه - أو عليها من ثبات وتحمل وجلد . وحتى أيضاً مظاهر الرعاية التمريضية العادية (الروتينية) تكاد تصبح مستحيلة وهي تتحدى أفضل الجهود التي يبذلها غالباً أكفأ المتخصصين والمتخصصات في التمريض والخدمة الطبية .

ليس أمراً بسيطاً ولا عادياً وجود الإنسان الوديع الذى لديه الإحساس الكامل بالأمان فيعهد إليه بشخص كان يعنى الكثير فى حياته الخاصة . وبالرغم من أن هناك العديد من الأسباب التى تؤكد عدم الملاءمة والكفاية لتوفير هذا الصنف من الناس ، فإن أهم تلك الأسباب يأتى من الإحصاء الصارم . إن مرض الزهيمر يدهم أكثر من ١١٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية الذين فوق سن الخامسة والستين وإجمالى عدد الأمريكيين المصابين الآن بهذا المرض بما فيهم من هم تحت سن الخامسة والستين - يقدر بنحو ٤ ملايين ، وفى زيادة مستمرة ، وتشير تقديرات الاحتمالات المستقبلية إلى أنه بحلول ٢٠٣٠ فإن الأمريكيين الذين سيعيشون إلى ما بعد الخامسة والستين سيبلغ عددهم ٦٠ مليوناً أو أكثر . فإذا علمنا أن تكاليف علاج أمراض المخ والخلل العقلى بكل أنواعه تقدر حالياً بنحو ٤٠ مليار (ألف مليون) دولار سنوياً (ومعظم هذا المبلغ لعلاج مرضى الزهيمر) ، فإن حجم المشكلة سيصبح بالتأكيد فوق المذهل . فهل يكون مدعاة للعجب أن تحاول أسرة مهمومة قلقه تبذل أفضل ما فى وسعها ثم تجد نفسها فى أكثر الأحوال مرتبكة مسحوقة وفى حاجة إلى الإرشاد والعون ؟ ..

كلما مر المزيد من الزمن ، تحول المرضى تدريجياً إلى الخضوع التام . وأولئك الذين لا يقعون تحت وطأة إصابة عارضة مثل شلل المخ أو الجلطة القلبية يكون من المحتمل جداً انحدارهم تدريجياً إلى حالة سبق وصفها بأنها لا إنسانية يمكن أن نطلق عليها : حالة الخمول . وعندما تزول كل الوظائف العليا للمخ . وحتى قبل حدوث ذلك يفقد بعض المرضى القدرة على المضغ ، والمشي أو حتى البلع . وقد ينتج عن محاولات إطعامهم نوبات من السعال أو الاختناق تثير الرعب عند من يشهدها ، خاصة عندما يشعر أنه ارتكب خطأ . وتلك هى الفترة التى تواجه فيها أسر المرضى القرارات الصعبة : أهمها تغذية المريض بإدخال أنابيب مع قوة تحمل اتخاذ تدابير طبية لابتدائها وقائياً للحماية من الإفرازات الطبيعية التى تهبط بالإنسان الواهن الهزيل إلى مرتبة أقل .

فإذا ما تقرر عدم استخدام أسلوب التغذية بالأنابيب ، فإن الموت جوعاً ربما يكون الاختيار الأرحم للذين فقدوا الوعى أو بمعنى آخر بلا إحساس بالحالة . قد يكون الموت جوعاً أفضل البدائل ، فالشلل وسوء التغذية الذى لا مفر منه غالباً هما من المفاجآت المتوقعة لمعظم المرضى الواهين الذين يطعمون بدون استخدام الأنابيب وبسبب سلسال البول وقرينه ، وعدم الحركة ، وانخفاض مستويات بروتين الدم ، يستحيل تقريباً تجنب قروح الفراش التى قد تصبح ضخمة بشعة المنظر كما أنها قد تزداد عمقاً فتظهر العضل ، الوتر ، وحتى أيضاً العظم ، تغطيها طبقات من أقدار

كربهة من الأنسجة الميتة والصدید . عندما يحدث ذلك ، فإن الصدمة النفسية عند الأهل لا يخفف قليلاً من وقعها إلا معرفتهم بأن الضحية المسكين غير واع بذلك .

ويؤدي سلسال البول مع الإفرازات الأخرى ، والحاجة إلى استخدام القسطة<sup>(١)</sup> إلى تلوث وتلف مجرى البول ويسبب فقدان القدرة على التعبير ، أو لابتلاع الإفرازات ، زيادة الميل إلى تكوين المخاط ، وقابلية الإصابة بالالتهاب الرئوي - وهنا مرة أخرى يتحتم اتخاذ قرارات علاجية صعبة لا تتعلق بالضمير الشخصي وحسب ، بل أيضاً بالمعتقدات الدينية ، والمعايير الاجتماعية ، الأخلاقيات الطبية . أحياناً ، تكون أفضل وسيلة هي التخلي عن اتخاذ تلك القرارات ويترك للعوامل الطبيعية الحاسمة أن تتبع طريقها . وما أن تبدأ خطواتها على هذا الطريق ، حتى يتسارع المسار عادة بشدة . والغالبية العظمى من الأشخاص الذين في حالة خمول الزهيمر سوف يقضى على حياتهم نوع ما من العدوى ، أو التلوث الميكروبي ، سواء نشأ هذا في مجرى البول ، في الرئتين ، أو في موضع متقدر كربة الرائحة ، أو من بكتيريا لصيقة مغمورة في قروح الفراش . وفي حالة الحمى التي تأتي نتيجة لذلك ، وتسمى «تعفن الدم Septicemia» ، فإن البكتيريا تدفع هجماتها نحو مجرى الدم ، وسرعان ما تحدث صدمة ، واختلال خفقدان (أو نبض) القلب (Cardiac arrhythmias) تجلط دموى شاذ ، فشل كبدي وكلوي ، فالملوت .

وعلى امتداد الطريق ، يتعود أفراد الأسرة اكتساب خبرة تكافؤ الضدين : العجز المفجع ، والتحول الفجائي المستمر نحو الأسوأ . إنهم يخافون ما يرونه ، بقدر ما هو محتوم عليهم أن يروا .. إن الزوجة الحزينة أو الزوج أو الأبناء ، وهم يناضلون مع مشاكل الأسرة والحياة الخاصة بهم ، يجرفهم بحر من المشاعر العنيفة المتضاربة .

إن مرض الزهيمر هو أحد الفواجع الكبرى التي يبدو أنها فرضت لاختيار الروح الإنسانية . إن نبل الإخلاص والوفاء عند جانيت ليس حالة فريدة في نوعه ، وربما تكون هي القاعدة السائدة مع اعتبار الأكثر أو الأقل في القدرة والمقدار .

وفضلاً عن أن سلوك جانيت - وأمثالها - ليس أمراً غير عادي ، ففي الحق ، أن أولئك الذين يقدمون العون التخصصي والمهني يتوقعون غالباً أن أسر المرضى نادراً ما يداخلها الشك في دورهم الذي يؤديه في عملية الرعاية والأشراف الطبي ولا ريب في أن التكاليف ضخمة فإذا ما دخل في الحساب جراح المشاعر واضطراب العواطف والانفعالات ، وإهمال الأهداف الخاصة والمسؤوليات الوظيفية والاجتماعية وإنحسار

(١) أنبوبة معدنية أو مطاطية يتم إدخالها في مجرى البول لتفريغ المثانة .



العلاقات والروابط ، وبشكل أوضح ارتباك المصادر المالية عندئذ تكون المحصلة هائلة لا تختمل . قليل جداً من المآسى تكاليفها أكبر . وعلى هذا النحو ، يبدو أن كثيراً من عائلات مرضى الزهيمر يحولون اتجاهاتهم فى الحياة النامية المتطورة الوضاعة بالآمال والغايات ، لأنهم محصورون محاصرون لعدد من السنوات مع العذاب الموجه فى طريق مسدود ، لا ينقذهم منه إلا موت الشخص الذى يحبون . وحتى من بعد ذلك ، فإن الذكريات المروعة مهما توارت وغطاها ركاب الزمن ، لا تلبث إن تقاوم النسيان ، فتعود بعد وقت قصير ، إن حياة كانت المعيشة فيها طيبة راضية ، وإن شعوراً مقتسماً من السعادة والعمل المثمر ، يستحيل استرجاعهما والنظر إليهما من خلال منظار لطخته أحداث السنوات القليلة الماضية . إن مسارات الحياة وأسلوب المعيشة فيها ، سوف تصبح - وإلى النهاية - أقل بريقاً وأقل طواعية وانقياد بالنسبة لأولئك الذين ظلوا على قيد الحياة .